

بين فن التاريخ وفن الحرب

## ١١ - خالد بن الوليد \*

## في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في يدني  
شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأتنا أموت على فراشي  
كما يموت البشير ! فلا تملك أعين الجبناء ،  
خالد بن الوليد »

فوصلت المقدمة مساء الى القرب من ثنية اليمامة ولقيت  
مفرزة من بني حنيفة نياماً في أسفل العقبة قباغتهم وأسرهم ؛  
وكانت هذه المفرزة مؤلفة من ستين رجلاً بقيادة جماعة بن مرارة  
أحد رؤساء بني حنيفة

والروايات جميعاً متفقة على أن جماعة خرج من اليمامة على  
رأس سرية يطلب بثأره في بني عامر وبني تميم ، لأن بني عامر  
منموه من أن يتزوج نخوة بنت جعفر . وبعد أن باغت بني عامر  
عاد بنخوة ووقف في أسفل العقبة مع رجاله ليبيت ليلته هناك  
وإذا المسلمون يباغتونهم ويقودونه مع رجاله أسرى الى خالد

والذي يلوح لنا أن جماعة كان يراقب مجي جيش المسلمين  
من الثنية - أي عقبة الحيسية . ويظهر أن قوة المسلمين باغته  
دون أن يستطيع التملص منها ، فلما وقف أمام خالد زعم أنه  
خرج للثأر

وتزعم الروايات أن خالداً قتل رجال جماعة لتأكده كفرهم ،  
واستبقى جماعة ليستفيد منه في حركاته على مسيلة . فياترى هل  
تواطأ جماعة مع خالد على مسيلة ، أو أنه تأكد نصر المسلمين فأراد  
أن يسوغ موقفه أمامهم ففرض الخدمة على خالد ؟ أو أنه خرج  
برجاله ليلتحق بجيش المسلمين فيدخلهم على عورات أعدائهم ؟ ذلك  
مالا نلده العلم الأكيد . والمحقق أن جماعة ظل محجوراً عليه في

(\*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كتابه الفاضل  
« الرسالة »

مسكر خالد وقام بالوساطة بين خالد وبني حنيفة لعقد الصلح بعد  
اتكسار جيشهم في عقرباء ، فأفاد الفريقين بتلك الوساطة  
ولا بد أن خالداً استجوب جماعة فاستقى منه جميع الأخبار  
الوثوق بها عن مسيلة وجيشه ، فعلم منه أن مسيلة ينتظر  
وروده في عقرباء

## المعركة

في رواية نقلها ابن جبير أن خالداً لما تثبتت من عسكرة  
جيش مسيلة في عقرباء شاور أصحابه في الأمر فأشاروا عليه  
جميعهم أن يتقدم نحو عقرباء . وكانت الأخبار تم على أن طليعة  
الحنفيين يقودها الرجال ، وهو من رؤساء بني حنيفة ، فتقدم خالد  
حينئذ بجيشه نحو العدو . فجعل أبا حذيفة على اليمنة وشجاع  
ابن وهب على الميسرة ، وكان زيد بن الخطاب يحمل راية المهاجرين ،  
وثابت بن قيس يحمل راية الأنصار . وعزير خالد برأ بن مالك من  
قيادة الخيالة وأحل محله أسامة بن زيد

أما جيش مسيلة فكان مولياً وجهه شطر الشمال الغربي  
ومتربكاً في سهل عقرباء بين جبل صليوخ ووادي حنيفة . فيستدل  
من ذلك على أن الأرض كانت صالحة لاتخاذ نظام القتال والحركة  
الخيالة ، وتم الروايات على أن رجلاً جنوبية مغبرة هبت في وجه  
المسلمين وزحزحهم عن مكانهم في القتال - أي أن جهة  
المسلمين كانت موجهة نحو الجنوب الشرق . ويظهر أن قوة  
الرجال انسحبت لما رأت المسلمين قادمين نحوها . وكان جيش  
مسيلة مرتباً على الأسلوب الشائع ومنقسماً الى ثلاثة أقسام :  
اليمنة والميسرة والقلب - ولم يكن الضمن خلفه لأن قرى بني  
حنيفة كانت في الخلف على ما نعلم

وكان محكم بن طفيل - وهو من أجل رؤساء بني حنيفة -  
شأناً على اليمنة ، والرجال على الميسرة ، وشرحيل بن مسيلة يقود  
القلب . فكان مسيلة وراء القلب يراقب مجرى القتال  
وبعد أن قضى المسلمون ليلتهم في عقبة الحيسية - أي ثنية  
الجماعة - واستوثق خالد من أمر جماعة ، تحرك الجيش صباحاً  
وكانت الشقة بينه وبين عقرباء مسير يوم . وفي رواية نقلها  
الطبري أن الموقع الذي باغت المسلمون فيه جماعة بن مرارة يبعد عن  
عسكر مسيلة مسير ليلة . والحقيقة أن المسافة بين العقبة وعقرباء  
لا تزيد على خمسة وعشرين ميلاً - أي مسير يوم في ذلك الزمن

جهودهم استطاعوا أن يهزموا الحنفيين . وفي الصفحة الثالثة اعتصم الحنفيون في الحديقة غاصرها المسلمون من كل صوب ودخلوها عنوة وقضوا على البقية الباقية من الحنفيين ونذكر فيما يلي مجرى القتال في كل صفحة من الصفحات الثلاث :

### الصفحة الأولى

بدأ القتال صباحاً بتحسيس القواد رجالهم بالكلمات المأثورة والخطب الحماسية . فنادى شرحبيل بن مسلمة في رجاله قائلاً : « يا بني حنيفة اليوم يوم القبرة ، إن هنتم تستردف النساء سيئات وينكحن غير حظيات . قاتلوا عن أحسابكم واهبنوا نساءكم »

وكان في أول القتال براز من الفريقين كما جرت عليه عادة العرب ، قتل في هذا البراز الرجال بن عنقوة الذي كان في طليعة الحنفيين قبل القتال . وكان على الميسرة قتلة زيد بن الخطاب ، ويظهر أن رؤساء آخرين من بني حنيفة قتلوا في البراز مما حمل الطبري على القول : « قتل الرجال وأهل البصائر من بني حنيفة » وبدلاً من أن يوهن هذا القتل عزائم بني حنيفة شدد عزيمتهم فتذاثروا وحمل كل قوم في ناحية . وبلوح من مجرى القتال أن الضربة كانت قوية من الجانب الأيمن على ميسرة المسلمين فزحزحتها من محلها وتراجعت منكسرة لا تلوى على شيء . فآثر ذلك في موقف القلب فرجع متقهقراً وبنو حنيفة بطاردونه إلى أن وصلوا إلى المسكر فقطعوا أطناب الخيام

ومن الروايات ما يزعم أن رجلاً جنوبية مغبرة هبت في وجوه المسلمين فضمضت سفوفهم ، فاستفاد بنو حنيفة منها فهزموا المسلمين حتى أزاحوهم من محلهم وطاردهم إلى المسكر فدخلوا في الفساطط فرعبلوه بالسيوف

والروايات متفقة على أن بعض الأعداء دخل خيمة خالد بن الوليد وكان فيها جماعة مكبلاً بالحديد قيد مراقبة أم تميم التي تزوجها خالد بعد قتله مالك بن نويرة . فأراد الحنفيون إنقاذ جماعة فهنوا بقتل أم تميم إلا أنه منهم من ذلك . فقال لهم : « لا تتشغلوا في المسكر ، ودونكم الرجال » ففي مثل هذا الموقف الحرج برز خالد إلى الميدان شاهراً حسامه تشجيعاً للمسلمين ومنادياً بشعار « يا محمداه ! »

والظاهر أن خالداً قضى ليلته التي سبقت يوم المعركة قريباً من جيش مسيلة ، لأن المعركة بدأت صباحاً واستمرت إلى العصر . وكان الموقع الذي اختاره كثيراً مشرفاً على الخيام كما ينقله الطبري . وسبق أن رأينا من وصف فلي لراية الالبكين أنها تشرف على وادي حنيفة وتسلط على الأرض الممتدة إلى الجنوب . فالأرض في الشمال تسلط على الأرض في الجنوب ، وكان لوضع الأرض على هذه الصورة فائدة لجيش المسلمين

وليس لدينا معلومات عن تمسك المسلمين في ميدان القتال ، وتدل الأخبار على أن أبا حنيفة كان يقود اليمينه وشجعاً للميسرة ويزيد بن الخطاب القلب وأسامة بن زيد الخيالة . فهل كان كل من المهاجرين والأنصار على مجنبه من المجنبتين ، وكانت القبائل في القلب ؟ أو أن المهاجرين والأنصار كانوا في القلب وكانت القبائل في المجنبتين ؟ أو أن المهاجرين كانوا في القلب مع قبائل الحجاز ، وكان الأنصار على إحدى المجنبتين وكانت قبائل البادية في المجنبه الأخرى ؟

هذه أسئلة تصعب الإجابة عنها . والواضح من مجرى القتال أن إحدى المجنبتين ( ولعلها الميسرة ) انهزمت نتلاها القلب ووصل إلى الخيام في الضمن . وأن أهل القرى - المهاجرين والأنصار وأهل الحجاز - عزوا هذه الهزيمة التي كادت تقضى على المسلمين إلى أهل البادية . فلنا من ذلك أن أهل البادية كانوا في الميسرة ، وكان المهاجرون مع بعض قبائل الحمي في اليمينه ، والأنصار مع البعض الآخر من قبائل الحجاز في القلب . ويظهر أن الخيالة كانت في الامام فانسجبت إلى الميسرة لتراقب الوادي ، وكان الضمن وراء القلب وفيه الخيام والنساء . ووقف خالد بن الوليد وراء القلب يراقب سير القتال

### صفحات القتال

نشبت المعركة صباحاً واستمرت إلى العصر . فبذل الفريقان قصارهما لتقلب أحدهما على الآخر واقتتلا اقتتالاً شديداً . وكما يقول الطبري كانت حرب لم يلق المسلمون مثلها قط

وجرى القتال في ثلاث صفحات : تغلب الحنفيون في الصفحة الأولى على المسلمين وأزاحوهم إلى الضمن وكادوا ينتصرون عليهم . وفي الصفحة الثانية كثر المسلمون راجعين فقتلوا على أعناقهم فأزاحوهم من المحل الذي وصلوا إليه . وبعد أن تضافرت

ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالدًا بفراسته وبطولته أفتقد الموقف . ولولا قيادة خالد وجلادة الصحابة الذين لقوا حتفهم بعد أن أظهروا للمسلمين أمثلة حسنة ، لدارت الدائرة على المسلمين ولا ريب

### الصفحة الثانية

تبدأ الصفحة الثانية بدعوة الرؤساء من المسلمين الى الثبات في محلهم والكر بعد ذلك على الأعداء

فثابت بن قيس الذي كان يقود الأنصار كان ينادى الأنصار قائلاً : « بشأ عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عنى حتى أريكم الجلال » وقال زيد بن الخطاب الذي كان يقود القلب حين انكشف الناس عن رحاطهم — أى السكر — : « لا تجوز بعد الرجال » وقام البراء أخو أنس بن مالك ينادى قائلاً « أنا البراء ابن مالك . هلم الى » أما أبو حذيفة الذي كان يقود اليمينه فكان ينادى قائلاً : « يا أهل القرآن ! زينوا القرآن بالفعال »

وفي مثل هذا الوقت المصيب تدبر خالد الموقف ففكر في حيلة يبيد بها نخوة المسلمين ، ويزيد حماسهم ، ولا سيما لما رأى أهل القرى يحميئون أهل البادية وهؤلاء يحميئون أهل القرى وتكاد الروايات جميعاً تتفق على أن القبائل من أهل البادية انهزموا أول مرة فألقوا الوهن في صفوف المسلمين . والظاهر من نتائج المعركة أن أهل القرى ثبتوا « فاستحز بهم القتل » كما يذكر الطبرى . وكان التدبير الذى توصل اليه خالد لينفذ الموقف ويتقلب على عدوه منحصرآ في أمرين :

أولاً — فصل أهل القرى عن أهل القبائل ، ووضع كل فريق منهم في جانب . فكان الأنصار والمهاجرون وأهل القرى الآخرون في جانب ، والقبائل في جانب آخر . لأن انهزام المسلمين أوقع الخلل في ترتيب المعركة ، فاختلطت الليسة بالقلب ، والقلب باليمينه ، وتخلت الناس عن رؤسائهم

ثانياً — طلب من كل جانب أن يمتاز ، وذلك لما رأى أهل القرى يعززون سبب الخيبة الى القبائل ، والقبائل تمزوا الخيبة الى أهل القرى . وفي هذا تناحر لدى الفريقين ، وإذا ما اشتد التناحر يؤدى الى التناقص

فصرخ في المسلمين طالباً منهم أن يمتازوا ليتبين من أين يأتى

الخلل . وكان يريد بذلك أن تبرز الفرق فلا ينسب اليها ذلة الانكسار . ونال بذلك ما أراد . فامتاز أهل القرى والبوادرى ، وامتازت القبائل من أهل البادية ، فوقف بنو كل أب على رأيهم كما يذكر الطبرى . فتولى خالد بنفسه قيادة صفوف أهل القرى ، فقاموا جميعاً قومة واحدة فقاتلوا قتال الأبطال . وكان خالد في أول الصف يشجع المسلمين يطولته ولا يقابله أحد إلا قتله . وكان يفتش عن مسيلة ليقته ، لأنه عرف أن الحرب لا تترك إلا بموته ، وأن بنى حنيفة لا تحفل إلا بقتله . وكان من أمر ذلك أن تشجع السلون فصدوا العدو

ويذكر الواقدي أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون من أطرافه قال : « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكله بجحيتى ؛ عضوا على أضراسكم أيها الناس ! واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً » ولم يزل يشجع أصحابه الى أن قتل والراية في يده ، فأخذها أبو حذيفة ، فجادل بسيفه حتى قتل . أما ثابت بن قيس فكان يحمل راية الأنصار ، فنادى في قومه « العزة لله ولرسوله ولأحزابه . أدرونى كما أريكم » ثم جلد في الأعداء وقاتل حتى قتل . وتسلم راية المسلمين سالم مولى أبي حذيفة ، وظل يناضل عنها الى أن قتل ، فقتلها آخرون وقتلوا

وإزاء هذه الجهود التضاعفة والأمثلة المشجعة تمكن المسلمون من أن يرحزحوا الأعداء من مكانهم حتى أزاحوهم تماماً ، فأخذوا يطاردونهم . وفي مثل هذا الحين أخذ محكم بن الطفيل المدعو بمحكم الحمامة يشجع بنى حنيفة متادياً : « يا معشر بنى حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حصينات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » . فقاتل قتالاً شديداً

أما أهل الحمامة فلما رأوا المسلمين يركبونهم صرخوا في وجه مسيلة قائلين له : « أين ما كنت تعدنا ؟ » فأجابهم قائلاً : « قاتلوا عن أحسابكم » ، ولما رأى المحكم أن الدائرة دارت على بنى حنيفة صاح فيهم : الحديقة ! الحديقة ! يريد بذلك أن يتحصنوا فيها ويقاوموا المسلمين . فانسحبوا الى الحديقة واعتصموا بها . ويظهر أن المحكم لم يتمكن من الوسول اليها لأن عبد الرحمن ابن أبي بكر رماه بهم فقتله

يتبع

طه الراسمى